أفراح صغيرة

بقلم : أحمد عثمان بهلول

اجتاز الكوبرى الذى يربط المدينة بالطريق المتفرع من نهاية المبانى ، ثم وقف عند المفترق ، وراح يمد بصره وسط الظلام يريد ان يبلغ به قريته البعيدة عنه مسافة اميال ثلاثة . وينقضى من الوقت ربع ساعة ، فنصف ساعة ، فساعة ، وكل دقيقة تشير فى ركابها دقيقة ، والدقائق تعصر روحه المشوقة وقلبه الملهوف ، ولاتحفل بحيرته . ويتململ فى مكانه ، ويغرس تأملاته فى الظلمة الضاربة من حواليه لعله يلمح قادما يشاركه الطريق .

وتمر دقائق اخرى ،ويتحرك كل مافيه سوى قدميه ، انه متسمر فى مكانه فى انتظار معجزة تنهى حيرته . سيارة ، او عربة او اى شىء ، فقط هو يريد ان يبيت بين اولاده ، ولكنه لايريد ان يجتاز الاميال الثلاثة الباقية من رحلته الطويلة وهو بمفرده ، ان الظلمة تجسم المخاوف والطريق الزراعى خال لايحرسه غير نقيق الضفادع ونباح الكلاب .

ومن حين لحين كان يلمع نور سيارة، ويتجدد أمله ، ثم ما يلبث أن يترع امتعاضه لانها مرت به ولم تحفل بوجوده ، ولو كان الطريق آمنا لسار على قدميه وحده ، ولكنه عاجز عن امتحان جسارته على اقتحام المخاطر ، فاليوم اول الشهر ، وفى مثل هذه الساعة المتاخرة يحلو للاشقياء ان يتسلوا على استلاب اردية البسطاء وجيوبهم ،وربما حياتهم ، ثم يتركون فريستهم عارية او صريعة ، ويتخيل كل هذا فيرتعد ويتحسس جيبه فى هلع ، ثم يشعر بشىء من الراحة حين يطمئن الى ان الجنيهات العشرة مازالت فى حوزته ، عشرة كاملة ، مازاد عنها من راتبه انفقه فى السفر من قرية «أم صابر» مقر عمله حتى مكان وقوفه ، وايضا .. انفق بضعة قروش فى ابتياع شىء من خيرات المدينة . اصابع صفر من الموز وقطوف حلوة من العنب . فمع اول كل شهر ، يكون كل البيت على موعد بلقاء حبيب. أمه ، وابوه ، واولاده الثلاثة ، بينهم ولده الكسيح «رضا» وحين يتذكره تند عن صدره آهة ، هذا الصغير تخطى عامه الثالث ، ومازال لسانه عاطلا ، وساقه عاجزة ، ولكنه ينتشى كثيرا لاصابع

الموز ، مايكاد يرى اللفائف حتى يمزقها ويبعثر محتـواها ، ويمـلأ قبضـتيه بأصبعين لم تنخلع القشرة عنهما ، ويهم ليطوحها فى فمه فى مرح ، فيتضـاحك اخوته ، ويتضاحك الجد ، والجدة ، وفى غمرة من المؤانسة تصنع الاسرة افراحها الصغيرة :

ولكن ... هاهى الاميـال الثلاثة تعطل افراحه ، انها سـفر طويل فى طريق موحش مشحون بالمخاوف ، والجنيهات العشرة وحيـاته كلاهمـا فى خطـر لو خطا فى الطريق خطوة واحدة ، ويلزمه ان يحمى حيـاته من اولاده فليس لهم سواه . وان يحمى جنيهاته من أجل قوتهم ، وايضا ... لانها ثمن العرق طيلة شهر عريض ، كيف يخاطر ؟ وهو يكاد يرى من خـلال خواطره زوجتـه وهى تستقبله ، لها قلب الزوجة الوفية ولها عقل المراة المـدبرة ، ودائمـا هى تتفحص جنيهاته بأناملها مثلما تفـرقه شوقا بهمهماتها ، البيت كله منذ العصر يتهيأ لاسـتقباله بجنيهـاته ، كل شىء تنظفه الزوجة وترتبه ، وتكنس كل الدار حتى مدخل الحارة ، وتخلع على الصغار أردية مغسولة ، وتنشر على الفـرش الملاءة المحلاوى الملونة ، وحتى هى ... تنزع عنها جلبابها الاسود . والاب الشيخ لايمل جلسة «المصطبة» طول النهـار ليكون أول من راى ولده . والام تنشغل باعداد طعام يشتهيه ابنها ، والصغار يستلهمون من الحـركة النشطة ميقات ابيهم ، ومنذ رحل عنهم لم تتغير عادته فى الوصول لهم قبل مغيب الشمس . فقط هذه المرة هى التى خانه الوقت فيها رئيسه كلفه بمهمة فتاخر ميعاد سفره ، ولكنه تشبث بأن يقضى ليلته وسـط اسرته ولو وصلها فى منتصف الليـل ، ومنتصف الليل لم يأت بعد . ممكن ان يكون بينهم قبل أن يثقل النوم عيونهم ، وتنطبق جفونهم على قنوط ويأس من عودته . فقط تواتيه معجزة . ويفيق من خواطره على ظلمة حالكه من حواليه وعلى الدقائق بلا توقف ، فيلعق ابتئاسه وينتظر .

ويحس بوخز فى ذراعه ، فيتنبه الى اللفائف التى أثقلتها كيزان الذرة المشوية واصابع الموز وحبات العنب ، ومن قلب ابتئاسه تنسل الى داخل نفسه ومضة ارتيـاح لانـه لم ينس الـكيزان التى يشتهيها ابوه . اكثر من اى شىء ، ان قريته مملوءة بالذرة الخضراء ، ولكن .. هذه مشوية على الفحم ولها طعم يتلذذ منه الشيخ الضارب فى السبعين ومازالت اسنانه قادرة على أن تنهش الحبـات فى مهارة .

وينتحى باللفائف ويضعها بجانبه ، ويريح قدميه ، ويجلس فى انتظار الفرج ويشعل سـيجارة ، وكأنه يحـاول ان يهيمن بأنفـاسها على روحـه القلقة . ومايكاد يستقر فى مكانه حتى تمرق من امامه سيارة ، فينهض واقفا فى هلع ، ويلوح بذراعيه فى توسل ، ولكن ... من الذى يهتم لشبح تنشق عنه الظلمـة فجأة ؟

ويعود لجلسته ، ولفائف سجائره ، ويهتف لنفسه : ماأحلاك يا «أم صابر» هذه القرية الجديدة ، فى الارض الجديدة فى الحياة الجديدة التى دبت على سطح الرمال وسط الصحراء ، فى اى مكان تقف وتشير بيدك لاية سيارة قادمة ، فى اى وقت من الليل أو النهار ، تتوقف

وتعرض خدماتها عليك ، وتحملك لاى مكان مادمت فى طريقها ، وبلا اجر ، وبلا تردد ، اسرة واحدة ، تعمل فى حقل واحد ، وفى ساحة واحدة ، ودنيا جديدة اسمها التعمير ، لايسألك السائق من انت الا ليعرفك ، وفى لحظات تتوالد صداقة جديدة ، وعاطفة جديدة تربط الغرباء الذين وفدوا من كل بلد ، ومن كل مركز ، مثلما ربطهم العمل الجديد ، وجمعهم الامل الجديد بساعد واحد ، وعزم واحد ، وطاقة واحدة ، ويوم غادر قريته مسقط راسه ،تركها بلا مال ، او حتى قيراط زرع ، وضاقت به وبقوت عياله قريته ، ففكر فى المديرية الجديدة ، ووجد العمل ، ووجد الرمل الاصفر يتحول الى زرع اخضر ،واحس بانه يمتلك كل شىء ، وان كل المساحات البعيدة من الحقول ، ومن الاشجار ، ومن الثمار ملك له لانها من غرس يده هو وكل الذين معه ، يحبون مثله العرق يقطر من جباههم قوتا شريفا لهم ولاولادهم ، الحياة حيث تركها حلوة وسهلة ، وناسها هناك طيبون ، ليسوا كهؤلاء الذين يهملونه تاركين الانتظار القلق يلهب ارتياحه .

ومن جديد اشعل سيجارة ،وماكادت الذؤابة تلمع حتى غشيت مكانه اضواء ساطعة ، وكأنها قبضة عاتية لطمت حلكة الطريق فأزاحتها فى قسر وفى حركة مضطربة القى بسيجارته لايعرف لماذا . وراح يلوح من بعيد وقد اعترض بكل كيانه السيارة التى اندلع بوقها لينبه هذا المجنون الذى تسمر امام العجلات ، وقريبا منه توقف السائق ، مفيظا متوجسا ، وتفاجئه توسلات منهوكة تكاد تخنقها الدموع . وبعد تردد حذر يلين السائق ويقبل ان يحمله الثلاثة اميال بطيء اجر كريم .

وتبدأ السيارة فى المسير ، ويدير سائقها جهاز الراديو ، فتناهى الى سمعهما اصوات تعج بالمرح والسعادة، ويتذكر أن الليلة موعد حفل اول الشهر حفل تسهر فيه مع عشاق فنها مطربة كبيرة ، ولم يتبرم لانه لايجد ثمن السهرة فى رحابها ، مجرد امنية طافت بخاطره للحظة ، ولكنه أحس بروحه معهم ، تصفق وتطرب مثل طربهم ،ومن جديد يخرج علبة الدخان ، ويشعل سيجارة له واخرى للسائق النشوان من الصوت البديع ، ويهمس للسائق فى دعابة وكأنه يشهده على حلم جميل راوده فجأة : ياريت ياأسطى عندى راديو ... يابختك .

وتنتهى المسافة ، ويهبط من السيارة ، وينسى كل شىء فى الدنيا ، الا انه سيلتقى بأولاده ، وفى خطوات اعماقه يتحرك راقصا مزغردا ، ويتابع مسيره فى دروب ضيقة لايخطئها . ويبلغ الدار ، وكل المشقات قد انزاحت عن صدره ، وفى رفق يدق الباب مرة وثانية وثالثة ، واخيرا ينفتح ، ويكاد ينفجر بالضحك وزوجته تعصر عينيها براحتها وبسمة الترحاب على شفتيها تغالب بها النعاس . ويتقدم من المكان الذى يضم كل الجماعة التى كانت فى انتظاره ، وكانت طرقاته قد ايقظت الكبار . اما الصغار فقد انحنى عليهم يبارك غفوتهم وكأنه يعتذر لهم بقبلاته من انتظارهم الطويل .

ورفع عنهم قامته ، ثم وقف واجما أن ذراعه ليست ثقيلة كما عهدها وهو على الطريق، ودار بعينيه حول الوجوه التى تطلعت اليه حين سكنت حركته فجأة ، واطرق الى الارض بعد أن رسم على شفته شبه ابتسامة ، فقد استخذى أن يعتذر عن لفائفه التى نسيها فى قلب الظلام .